

الإخوان وابن سعود من التفاهم إلى التصادم

عمر المالكي

سيرة العلاقة بين عبد العزيز وجيشه العقائدي (الإخوان)، هي سيرة مشروع الدولة الذي قام على أساس تصوّرات عقديّة لأهداف سياسية طموحة. لم يكن عبد العزيز، أو ابن سعود، يدرك في بادئ الأمر القوة الكامنة التي ينطوي عليها الإخوان، وكان قد تشكّل على تخوم مركز سلطته، وخارج النسق السياسي الذي أراده معبراً سريعاً إلى حلمه الكبير، أي إقامة الدولة. بقي ابن سعود دون عقيدة قتالية لما يربو عن العقد من الزمن، فكان يقاتل من أجل الدولة ضمن رؤية سياسية محض. ولكن ذلك المشروع - الحلم بقي دون تحصين أيديولوجي، خصوصاً في ظل صراعات قبلية تتكافى من حيث القوة العددية والتجهيزية والروح القتالية. وفي لحظة ما بعد منجز عسكري لافت، عثر ابن سعود على العنصر المفقود في مشروعه السياسي، ممثلاً في العقيدة السلفية التي كان يعتنقها جيش قد شارك من قريب معه في فتح الأحساء، ورأى بعينه كيف حوّلت تلك العقيدة ذلك الجيش إلى قوة قاهرة، تلوذ بالشعار الديني لتبرير أشد إقترافاتها القتالية الدموية، فعاد ابن سعود من الأحساء إماماً بعد أن كان أميراً وسلطاناً. ولكن قبل ذلك، متى أفاق ابن سعود على قوة الإخوان، وماهي مقدمات تلك العلاقة الحاسمة التي نشأت بين ابن سعود وقادة الإخوان وخصوصاً فيصل الدويش وسلطان ابن بجاد، وفي نهاية المطاف إلى أين وصلت، وكيف أسدل الستار على تلك العلاقة؟



الاخوان: جيش عقائدي بلا رؤية

من الكويت إلى الرياض

أمضى عبد الرحمن بن فيصل آل سعود مع ابنه عبد العزيز، البالغ من العمر - حينذاك - أحد عشر عاماً، في الكويت عقداً من الزمن، في ظل تحولات جيوبوليتيكية إقليمية ودولية، حيث حصل ابن الرشيد على ضوء أخضر من الأستانة لجهة مدّ رقعة دولته لتشمل مناطق واسعة بما في ذلك الكويت، فيما كانت تتشكّل تحالفات سياسية على قاعدة مصالح متبادلة، فوقف العثمانيون إلى جانب ابن الرشيد، ووقف الإنجليز مع آل الصباح، ثم دخول عنصرين دوليين وهما الألمان والروس، يختلفان خلف جبهة الخليج والنزاع العثماني - الإنجليزي الدائر في المنطقة. وكان الصراع محتتماً بين الإنجليز والألمان بشأن خط سكة الحديد بين برلين وبغداد،

الذي كان ينظر إليه على أنه محاولة لفتح خط سياسي ونفوذ في المنطقة، وكذلك الحال بالنسبة للروس الذين خاضوا حروباً طويلة مع العثمانيين في القرن التاسع عشر وهددوا قلب الدولة العثمانية، فكانوا يسعون إلى إحداث إختراق في المنطقة، في وقت كان الإنجليز يجهدون من أجل الإنفراد بالسيطرة على إمارات الخليج .

في ظل التجاذبات الحادة بين القوى الدولية، كان ثمة عامل حاسم مشدود إلى نمط التحالفات السياسية القائمة، وأن وجود قوة إقليمية مرتبطة بقوة دولية كفيل بإحداث خلخلة في بنية التحالفات القائمة، بالنظر إلى المتغيرات المحلية والدولية. وكانت علاقة عبد العزيز، مؤسس الدولة السعودية الثالثة، وثيقة بأمير الكويت الشيخ مبارك الصباح الذي كان بدوره يحتفظ بعلاقات وثيقة بالإنجليز، ما اعتبر مفتاحاً لعلاقة إستراتيجية مستقبلية بين ابن سعود والإنجليز، رسّخه وجود عدو مشترك يتمثل في العثمانيين وابن الرشيد الذي أقام على ماء الحفر في أطراف الكويت بهدف ضمها إلى إمارة الرشيد، فاتفق عبد العزيز ومبارك على تصفية جيوب نجد من أسرة آل الرشيد، وطلب الشيخ مبارك من عبد العزيز بالتوجه نحو الرياض (وقد كان ابن سعود أشد منه رغبة في ذلك وأعظم ميلاً لتحقيق تلك الأمنية)¹ .

وخرج ابن سعود ضمن جيش يقوده مبارك الصباح لمحاربة ابن الرشيد، ثم أصبح على رأس ألف مقاتل، وتظاهر بغزو أطراف بادية الجنوب، وأقام هناك بانتظار نتائج المعارك الدائرة بين قوات ابن الرشيد ومبارك الصباح. وبعد أيام قلائل تحرّك عبد العزيز نحو الرياض، والتقى جيش ابن الرشيد في موقعة الصريف في مارس 1901، فتكبّد ابن سعود هزيمة ساحقة اضطرتة للإنسحاب الفوري والفرار إلى الكويت، فتعقّبت قوات ابن الرشيد، ولولا تدخل المدافع الإنجليزية الموجهة لقوات ابن الرشيد لوقعت الكويت وأميرها تحت سيطرة ابن الرشيد، وقد يكون ابن سعود في عداد القتلى .

في العام التالي 1902، قرر عبد العزيز خوض معركة جديدة ضد ابن الرشيد بهدف إحتلال الرياض، وتكفل مبارك الصباح بتجهيز قوات ابن سعود، رغم خشيته من طوحات الأخير في بلاده، وهو ما كشف عنه أحد أتباع أمير الكويت وهو يشرح ما يببّته ابن سعود (كان - الشيخ مبارك - يعلم أن ابن سعود إذا ما تمّ له ما يريد في نجد أنه سيشرع بتوسيع نفوذه وسلطانه واستتصال شأفة من يقف في وجهه ولو كان مباركاً صديقه وحميمه. كان يعلم هذا منه لأن طبيعة الملك تقتضيه وأطماع الملوك الكبار لا تخرج عن دائرته، ومبارك يعلم أن صاحبه واحد من أولئك..²).

هواجس أسرة آل الصباح تعزّزت بعد احتلال الأحساء عام 1913، حيث فتحت إنتصاراته شهية منفلة يعزّزها الجيش العقائدي الذي كان يسير وفق تصوّرات عقدية تقوم على تكفير سكان المناطق المجاورة تمهيداً لغزوها واحتلالها. وكان شعار (الملك لله ثم لعبد العزيز) قد أثار مخاوف مبارك الصباح، الذي وقع تحت تهديد مزدوج فاختر مواصلته دعمه لابن سعود من أجل درء خطر داهم ومباشر يمثّله ابن الرشيد، فكان مبارك سخيّاً مع ابن سعود في حربه ضد ابن الرشيد. وذكر عبد العزيز الرشيد (أما مبارك آل الصباح، فكان في تلك الوقائع بين الأميرين - ابن سعود وابن الرشيد - هو ركن ابن سعود الأعظم الذي عليه يعتمد، فتراه يبعث إليه الإمدادات بسخاء وكرم ويخرج إليه الحملات الواحدة تلو الثانية والقافلة إثر أختها تحمل الأطعمة تارة والذخيرة أخرى، وفوق ذلك فإن مباركاً كان يرسم الخطط الحربية له، وهو في مدينته، فانتصار ابن سعود إذاً على ابن الرشيد هو انتصار لمبارك على خصمه وتنفيذ لخططه التي رسمها..³).

وسار ابن سعود الى الرياض على رأس سرية، وهبط فيها ثم تسلق هو وأتباعه البالغ عددهم 64 رجلاً في ليلة الخامس من يناير سنة 1902، بيت امرأة من أقاربه وكان مجاوراً لقصر ابن عجلان، أمير الرياض من قبل ابن الرشيد، ففرغت النساء لطرق الباب ليلاً. سألت إحدى النساء من خلف الباب عن هوية الطارق، فتظاهر ابن سعود بأنه يريد من زوجها، جويسر، شراء بقرة للأمير في صباح الغد، فرفضت فتح الباب، وقالت له: لا يطرق باب النساء في الليل إلا فاسد، فهدها ابن سعود بابن عجلان وأنه سينتقم من زوجها إن لم تفتح له الباب، فاضطرت لفتحه مرغمة، فهجم ابن سعود وأتباعه، وتعالص صيحات النساء، وهدد ابن سعود صاحب البيت، جويسر، بالقتل إن لم يلتزم الصمت، وتسلل ابن سعود وأتباعه الى غرفة نوم ابن عجلان، فاقتحمها، ووجد زوجته لؤلؤة بنت ابن حماد وأختها نائمتين، ففرتا من الفراش، فيما بادر عبد العزيز إلى السؤال عن ابن عجلان، فأجابت زوجته أنه في القصر ومحاط بالحرس. فانتظر ابن سعود حتى الصباح، وعند طلوع الشمس خرج الأمير ابن عجلان، قاصداً بيته فلحقه ابن سعود، ولكن ابن عجلان ولّى هارباً، فرمقه رجال ابن سعود ولحقوا به فوق في قبضة ابن سعود، فرماه وأراد قتلاً، وتمكّن من احتلال الرياض في عيد الفطر سنة 1319هـ .

بدأ عبد العزيز في تعزيز سيطرته على الرياض، استعداداً لشن سلسلة من الغزوات على المناطق الخاضعة تحت سيطرة ابن الرشيد، فخاض حرباً ضد الأخير في موقعة البكيرية والشنانة سنة 1904، ونجح في فرض سيطرته الكاملة على منطقة نجد، ما دفع الأتراك للدخول معه في مفاوضات والتي نصّت على أن يعترف الأتراك بسلطان عبد العزيز على نجد، في مقابل إبقاء مستشارين أتراك فيها، إلا أن عبد العزيز وبعد موافقته على شروط المفاوضات أقدم على خرقها، وشن حملة عسكرية على مدينتي عنيزة وبريدة وفرض سيطرته عليهما .

وكان إندلاع تمرد في اليمن قد ساعد ابن سعود على مواصلة عملياته العسكرية وتعزيز وجوده في القصيم، ما أدى الى استعانة الأتراك بقواتهم المربطة في القصيم بهدف قمع التمرد في اليمن، وتثبيت سلطانهم، وأدى ذلك الى تجدد المواجهات العسكرية بين ابن سعود وابن الرشيد، وانتهى بموقعة (روضة المهنا) سنة 1906، قتل فيها ابن الرشيد عبد العزيز بن متعب، وتمكن بذلك من فرض هيمنته على نجد والقصيم 4 .

أشعل إنتصار ابن سعود في مركز سلطته تطلّعاً مختمراً منذ سنوات، حيث قرر احتلال الأحساء بوصفها إمتداداً جيواستراتيجياً لمنطقة نجد. وكما في الدورين الأول والثاني من التاريخ السياسي السعودي، فإن سقوط نجد تحت سلطة حاكم نجد، يفضي بالضرورة إلى تمهيد الطريق نحو سقوط الأحساء بالقوة، فقد تحوّلت الأخيرة إلى عمق إستراتيجي لا غنى عنه بالنسبة لحكام نجد. وجاءت الظروف السياسية الإقليمية لصالح ابن سعود كيما يحقق طموحه العسكري في احتلال الأحساء، بعد أن اندلعت شرارة الحرب بين الأتراك والطلّيان في طرابلس بليبيا سنة 1913، واضطرت الدولة العثمانية أن تتركس جهودها لمواجهة الإحتلال الإيطالي، وأفسح ذلك في المجال أمام ابن سعود لاستثمار هذه الفرصة التاريخية بصورة فورية. وفي مطلع عام 1913، هجم عبد العزيز وجنوده على الأحساء بعد أن أطلع الضابط الإنجليزي ليتشمان على خطته لترتيب أوضاع المنطقة بين الطرفين بعد السيطرة عليها، فدخل ابن سعود الأحساء وثبت أقدامه فيها، ثم فرض تدابير إدارية لضبط السيطرة على المنطقة. كتب إ.فاسيلييف (عين عبد العزيز عبد الله بن جلوي حاكماً للأحساء وأخذ هذا ينكّل بنشاط الشيعة دون رحمة وخصوصاً في القطيف) 5. فيما فرض ابن سعود الضرائب الباهظة على الأهالي، واستخدام الأحساء كمورد منظم للدولة بواسطة الرسوم الجمركية 6 .



إبن سعود: إمام بدعم الكفار !

الأخوان .. وظيفة مزدوجة

نشأت حركة الإخوان بعد تأسيس أولى المستوطنات في شهر ديسمبر 1912 في الأوطاية التابعة لقبيلة مطير، بقيادة الشيخ عبد الكريم المغربي. يقول عنه ديكسون (كان المعلم الأكبر لفالح باشا السعدون شيخ المنتفك.. وأصبح بعد ذلك معلماً لمزعل باشا السعدون والد إبراهيم بيك السعدون، وعندما ترك عبد الكريم خدمة مزعل باشا غادر العراق إلى نجد حيث أظهر نفسه كمعلم ومصلح ديني في مدينة الأوطاية التي كانت وكراً صغيرة للوهابية..7 .

ونشطت حركة الإخوان في الأوطاية، وتحولت إلى حركة عسكرية تحت قيادة المغربي، ثم تسلمها فيصل الدويش، زعيم قبيلة مطير، وشنت غارات متلاحقة على المناطق المجاورة، ورفضت الخضوع لأية سلطة مركزية .

تنبه ابن سعود لحركة الإخوان كقوة عسكرية وأنها قد تتحول إلى مصدر تهديد لسلطته في نجد، وتأكد بعد إستيلائه على الأحساء أن الإخوان باتوا قوة ضاربة ليس من السهل الإصطدام بها، حيث أبدوا تفانياً في المعارك، فكان حيال هذه الحركة المتصاعدة أمام خيارين: إما القضاء عليها، وهذا ينطوي على كلفة باهظة فضلاً عن احتمالات فشل الخيار، أو إحتوائها والإفادة منها وتوظيفها في مشروعه العسكري المتمدد، وهذا يتطلب تبني أيديولوجية دينية، ورفع الشعارات السلفية التي يعتنقها الإخوان. بدأ ابن سعود يتظاهر بالإلتزام بالتعاليم الوهابية، وقرر إرتداء لباس الإمامة وخلع لباس السلطنة، ريثما يحقق أغراضه من القوة العسكرية الناشئة والفتاكة. وفي عام 1916، وجّه ابن سعود نداءً إلى قبائل نجد للانخراط في صفوف الحركة الجديدة، ودفع الزكاة له بصفته إمامهم الشرعي8 .

أطلع ابن سعود قادة (الإخوان) على خطته السياسية التي أسبغ عليها طابعاً دينياً بهدف إقناعهم بها، وعرض عليهم فكرة الإشراف على هجر قبائل نجد التي كان ينوي عبد العزيز إقامتها، ورغم إعلان (الإخوان) الرفض المتكرر لعروض ابن سعود، غير أنه تمكن بدهاء من إقناعهم، بنفس الطريقة التي إنتزع فيها إعترافاً بإمامته عليهم .

من جهة ثانية، عمد ابن سعود الى تذويب كيان الأخوان وتفتيته عبر النداء الذي أطلقه للقبائل لجهة الإنضمام الى الإخوان، حينما بدأ في خطة إقامة الهجر على غرار هجرة الإرتاوية، سعيّاً وراء إضعاف الروابط القبلية، حيث بلغ عدد الهجر نحو 220 توزعت على مناطق نجد والحجاز وشملت المناطق الشمالية المحاذية للأردن .

كان ابن سعود ينظر إلى قبيلة العجمان كقوة منافسة ومصدر تهديد لحكمه، ولذلك (كان ينوي نقل قبيلة العجمان من منطقة الأحساء الساحلية - موطنها الأصلي - إلى نجد حيث يقسمها إلى أقسامها العشرين التي تتألف منها ويضع كل قسم في حاضرة من حواضر الإخوان وذلك لكي يشتت شملها)9 .

وبالفعل، نجح ابن سعود في إخضاع العجمان سنة 1919، وتوزيعهم على الحواضر واعترفوا به إماماً عليهم، وعادوا الى مقاطعات نجد، وهناك تلاشت قوتهم وذابوا في كيان الإخوان. طلب عبد العزيز من القبائل الإنتقال من منطقة إلى أخرى لجهة الإشتغال بالزراعة والفلاحة، بهدف تفتيت القبائل وإبعادها عن بعضها، وخلطها في حواضر قبائل أخرى لتذوب ويتشتت شملها، ومن هنا جاءت فكرة الهجرة. كتب عسّه (أقام عبد العزيز في حياته ما ينوف عن مائة وإثنين وعشرين "هجرة"، وكانت كل هجرة منها لخذ من قبيلة، وكان سكان هذه "الهجرة يدعون الإخوان ويميزون أنفسهم بعصابة يلقونها على رؤوسهم بدل العقال التقليدي)10. وهي ذات العصابة التي يرتديها زعيم القاعدة ابن لادن وأفراد الشبكة في المناطق التي تعمل فيها، حتى باتت إحدى العلامات الفارقة لهذا التنظيم .

وقد اختلف الباحثون في التاريخ السعودي في تحديد غرض ابن سعود من الهجر. يرى جلال كشك بأن الهجر كانت تعني (الهجرة من دار الشرك، من التعلق بالمجتمع المشرك من كل ارتباط وكل القيود التي تربط المهاجر بالمجتمع المرفوض، فيحمل إيمانه وينطلق خفيفاً فرحاً مؤمناً متحرراً إلى الله ورسوله.. إلى "يثرب الجديدة إلى أرض الإيمان.. إلى دار الهجرة.. إلى الأرض المحررة إلى الجهاد.. إلى "الهجر.. ومنها ينطلق إلى تحرير العالم ونشر تصوّره للمجتمع المثالي الذي يحقق خير الدنيا والآخرة)11 .

أما العطار فيعتقد بأن (الهجرة هنا أرض يخططها الحاكم للبدو، ويقطعهم إياها للسكنى والعمارة، حتى تكون كالقرى والمدن الثابتة. ومعنى الهجرة الإنتقال من أرض إلى أرض، أما في الإسلام فالإنتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، ويجوز هنا حمل المعنى على الإصطلاح اللغوي، فقد نقل هؤلاء البدو إلى أرض يستوطنونها، بأسرهم تكون لهم بمثابة المدن للمتحضرين)12 .

أما محمد المانع (المترجم في ديوان ابن سعود) فكتب ما نصه (في سنة 1912م -1330 هـ وكجزء من محاولة حل مشاكله قام ابن سعود بإحياء مبادئ التطهر التي في الحركة الدينية التي بدأها عبد الوهاب في القرن الثامن عشر. وهدف الحركة هو توحيد القبائل في خدمة الله. وكانت فكرة الأمير العظيمة هي تشجيعهم على إنشاء مستوطنات دائمة، ومن هذا الإحياء لتعاليم الوهابية، وانبثقت الحركة الدينية المعروفة بالإخوان..)13 .

ما يجمع عليه الباحثون أن ابن سعود لم يرفع الشعار الديني إلا في سنة 1915، وبصورة محددة بعد بروز الإخوان كقوة عسكرية في معركة جيراب سنة 1914، وهي المعركة التي أعلت من صيت الإخوان، وراعت إنتباه ابن سعود، وأن ندائه للقبائل عام 1916 كان لجهة إحتواء هذه الحركة وإخضاعها لمشروعه السياسي، بعد زجّها في الهجر. وكان إلتزام الإخوان بالتعاليم الوهابية فرض على ابن سعود إعتناق أيديولوجية وهابية من أجل شرعنة سلطته واستقطاب زخم شعبي لمشروع سياسي ليس قابلاً للنجاح دون توفير مسوّغات دينية تعلو فوق الإنتماءات التقليدية القبلية .

أما عن التعاليم الدينية التي تربي عليها الإخوان، فيصف أمين الريحاني غلو الأخوان قائلاً (وهم في غلوهم يعتقدون أن من كان خارجاً عن مذهبهم فليس بمسلم، فيشيرون إلى ذلك في سلامهم بعضهم على البعض.. السلام عليكم ياإخوان، حيا الله المسلمين، وإذا سلّم عليهم سني أو شيوعي فلا يردّون السلام)14. وكان يستحوّذ عليهم شعور مغالى فيه، فيما كان كثير من مفاهيمهم الدينية بدائية وتقارب الغلو. وبلغت درجة التعصب الديني لدى الإخوان أنهم وضعوا (في كل مسجد بالرياض جريدة بأسماء الذين يصلّون فيه يقرأها الشيخ كل يوم صباح مساء، فإذا كان أحد غائباً يزوره وفد من الإخوان في بيته..إما إذا تغيب عن الصلاة ثانية بلا سبب فيعظونه ويوبخونه، وإذا كرر فعلته فيبسطونه لا محالة ويعملون في ظهره النخل والخيرزان)15.

وقد وصف الشاعر بولس سلامة (الإخوان) في أبيات من الشعر جاء فيها :

حسبوا الحقد والتعصّب ديناً

أي دينٍ يبقى مع البغضاء

يا غلاة الإخوان ضيقتم الدين

وزغتم عن منهج الحنفاء

ما رأيتم منه سوى الكبت

والحقد وإبداء نقمة وازدراء

وانتقاصاً من الشوارب

والثوب وميلاً بغزوة وعداء

قد عرفناكم جنود مليك

فمتى صرتم جنود السماء

شهداء للجهل كم من غبي

مات من أجل فكرة جوفاء

عبثاً تطلب الشراب طهوراً

أن يك الخبث من كيان

ومازاد في درجة التزمّت لدى الإخوان قيام عبد العزيز بإنشاء مدارس دينية إلى جانب الهجر بهدف إستيعاب الإخوان، وكلف آل الشيخ ابن عبد الوهاب بمهمة إدارة المدارس وترسيخ التعاليم الوهابية بما ينسجم وطموحات عبد العزيز. كتب الشيخ حافظ وهبة (لقد تشرب هؤلاء كثيراً من المبادئ والتعاليم واعتقدوا أنها هي الدين وما سواها ضلالة كما أساءوا الظن بغيرهم من حضر نجد.. وكان كثير منهم يعتقد أن لا إسلام لمن لم يسكن الهجر مهما كانوا عليه من الإسلام، وترك شرور البادية وعوائدها. فلا يبدأون غيرهم من هؤلاء بسلام ولا يردون عليهم السلام ولا يأكلون ذبائحهم، وذنب هؤلاء عدم الهجرة.. وكانوا يعتقدون أن الحضر ضالون وأن غزو المجاورين واجب وأنه ألقى عليهم هذا الواجب من قبل الله فلا يسمعون كلام أحد في منع الغزو..) 16.

أفاد ابن سعود من عقيدة الإخوان في تحقيق أهدافه السياسية، فقد أصبحوا، تحت تأثير المحرّضات الأيديولوجية على تكفير ومن ثم غزو الآخر، جيشاً عقائدياً يقوده ابن سعود. كان الإخوان في توق عارم من أجل شن الحروب على من يصنّفونهم في خاتة الكفار، وهو وصف يصدق، في نظرهم، على كل من ليس منضوياً في مجتمع (الإخوان)، وبذلك أصبحوا سلاحاً في يد ابن سعود يستطيع أن يشهره في وجوه أعدائه 17. ونجح ابن سعود في صوغ ذهنية الإخوان بما جعلهم أداة فعالة في تنفيذ مآربه السياسية، وتحولوا إلى شوكة ابن سعود أيام الحروب 18. ولعب التصوير الديني لحروب ابن سعود في شحن حماسة الإخوان لخوضها بشراسة، حتى وصفهم أهل الحجاز والعراق بالذئاب (يذبحون ويحمدون الله. يسلبون وينهبون ويكفرون من لا يقتدي بهم. يشنّعون بالقتلى في الحرب ويرتكبون الفظائع ما تقشّر منه الأبدان) 19.

وساهمت التعبئة المذهبية في تأجيج غريزة القتال، واقتراف مجازر دموية في سبيل توسعة رقعة سيطرة ابن سعود، فكانت تتزايد الوقعات ويتزايد عديد القتلى كلما توسّعت سيادة ابن سعود 20.

وقد اشتهرت شعارات كان يتغنّى بها الإخوان في مسيرهم للقتال منها (أنا خيال التوحيد أخو من طاع الله)، و(هبت هبوب الجنة وين إنت يا باغيها)، وقيل أنهم رفعوا شعار (من عادى آل سعود يعادي الله، فخذ عدو الله بعهد الله واغدر به).



فيصل الدويش: أراد حجة من الإمارة فقتل

فيصل الدويش.. الحليف المنافس

نقل ديكسون في كتابه (عرب الصحراء) توصيفاً لشخصية فيصل الدويش، من وحي العلاقة الشخصية التي ربطته به، وكان يرى فيه (ملكاً حقيقياً بين البدو)، على أساس شخصيته الكاريزمية وسط قبائل مطير، وأيضاً دوره الفريد في مساعدة ابن سعود للوصول إلى السلطة والشهرة، وهو الذي احتل المدينة المنورة وسلمها لابن سعود، وقد تنبّه ابن سعود في مرحلة مبكرة لخطورة الدويش، الذي اعتبره المنافس الأكبر لحكمه، حتى قال عنه أنه لو لم أكن أنا الملك، فإنك ستكون مكاني. كان الدويش صانع الإستراتيجيات والإنصارات العسكرية لابن سعود، وكان رجال مطير يعتبرونه بطلاً عظيماً وقائداً .

سحر الدويش كان طاغياً على رجال الإخوان وحتى على قوات ابن سعود إلى حد أنه حين جيء به إلى معسكر ابن سعود خلال معركة السبلة، كان كل شخص في معسكر الملك حريصاً على إلقاء نظرة عليه، ويقول مترجم الملك: فرغم أن الدويش كان عدونا إلا أنه كان له سحره الخاص، الذي لا يفوقه إلا سحر الملك شخصياً. وقد وصفه ابن عثيمين في قصيدة حول فتح حائل سنة 1921 بأنه :

وزير إمام المسلمين الذي له

مشاهد فيها معطس الفسق يرغم

وكتب ديكسون بأن رجال عشيرته يحبونه حباً يشبه العبادة، ويقول بأنه التقى به في الحادي والثلاثين من أغسطس 1929، خلال تمرّد الإخوان على ابن سعود، إثر قيام الدويش باجتياز الحدود مع جميع القوات المتمردة من قبائل مطير والعجمان وخيموا حول آبار الصبيحية في الأراضي الكويتية. وبلغ عدد الخيام التي نصبوها نحو 3 آلاف خيمة، فيما بلغ عدد الإبل

المرافقة نحو مائة ألف. وفور وصول أنباء دخول الدويش وقواته حدود الكويت، أرسل ممثل التاج البريطاني في الكويت تحذيراً عبر ديكسون لفیصل الدويش يطالبه بالانسحاب من حدود الكويت خلال ثمان وأربعين ساعة، وإلا فإن قوات الطيران الملكية البريطانية المرابطة في الشعبية (البصرة) ستمطره هو ورجاله بالقتابل. ويروي ديكسون قصة لقائه بالدويش بما نصه: فركبت سيارتي واتجهت إلى (ملح) حيث طلبت من فیصل الدويش أن يقابلني وكان أمير الكويت قد حذرني بشدة من الذهاب للقائه خشية أن يغدر بي، وفي اللحظة الأخيرة تبعني شيخ الكويت مع أربعة من عبيده، حتى إن أصابني شر، كما قال يصيبه ما يصيبني، وصل فیصل الدويش إلى المكان الذي تواعدنا فيه على اللقاء بمصاحبة كبار رجال الإخوان وهم فئة من الرجال المتعصبين الأشداء الذين كان فیصل يسيطر عليهم سيطرة تامة، وبعد أن أطلعتهم على الإنذار الذي أحمله أضفت بأنني قد أقنعت قائد القوات الجوية البريطانية أن يتوقف عن الضرب لمدة يومين خوفاً على حياة النساء والأطفال الذين كانوا يرافقونهم، ورجوت فیصل الدويش أن يعطيني كلمة شرف بأن ينسحب عبر الحدود خلال المدة المحددة حرصاً على سلامة النساء والأطفال. ظل فیصل الدويش متردداً ساعة كاملة، محتجاً بأنه لا يوجد أي خلاف بينه وبين الحكومة البريطانية وأنه هو وقومه كانوا من رعايا دولة الكويت السابقين. وبعد أن حان وقت صلاة المغرب، أمّ قومه وبعد إنتهاء الصلاة استدار وهو لا يزال على ركبتيه وقال لديكسون: أعد بشرفي أن أفعل ما طلبته مني، إذهب بسلام. يقول ديكسون (شعرت عندها أنني كنت في حضرة زعيم حقيقي للصحراء ولم أعد أرى فیصل الدويش ثانية إلى حين استسلامه في الجهراء بعد خمسة أشهر، أي في الثامن من يناير 1930م، عندما شققت طريقي من خلال قتابل القوات الجوية البريطانية التي كانت تنفجر من حول مخيمه ورجوته أن يستسلم خلال ساعتين للقوات الجوية الملكية البريطانية وأن لا يحاول اختراق طوق الحصار كما كان ينوي أن يفعل ويحاول التفاهم مع القوات السعودية التي كانت تربض في انتظاره على الحدود الجنوبية للكويت، وكان موقفه يائساً فقد كانت طائرات السلاح الجوي البريطاني والقوات البرية تطارده لعبوره حدود الكويت مخالفاً بذلك أوامر ممثل صاحب الجلالة ملك بريطانيا، وكان أمله بالنجاة ضئيلاً، أطاع فیصل نصيحتي مع أن أحداً غيري وغيره لم يكن يعرف الدور الذي لعبته في الموضوع وانطلق بعد وداع مؤثر إلى معسكر قائد السلاح الجوي الملكي البريطاني وقائد القوات المرابطة في العراق نائب مارشال سلاح الجو الملكي البريطاني السير س.س. بيرنت الذي كان يدير العمليات وسلّمه سيفه، وقبل نقل فیصل إلى البصرة بالطائرة كسجين في آخر النهار عهد بزوجته وأخواته الثلاث وطفليه الصغيرين وسبعة وعشرين من قريباته الإناث، ونزل الجميع ضيوفاً علي في الكويت ما يزيد عن شهر كامل إلى أن أرسل الملك عبدالعزيز آل سعود الشاحنات والخدم لنقلهم إلى عاصمته، وقد قدر لي الملك صنيعي وأرسل يشكرني بحرارة على ما فعلته .

وقد وجه لفیصل الدويش الكثير من النقد الجارح وأحيانا عبارات الذم المريرة وبخاصة من الناس الذين قاسوا على يديه من سكان العراق .

يقول ديكسون بأن خلافاً وقع بين الدويش وإبن سعود، لأن الأخير كان يحمل أفكاراً جادة ولم يستطع أن يرى الأمور من وجهة النظر السياسية، وكان يلعب لعبة خطرة ومزدوجة بإقامة علاقات ودية مع الإنجليز الكفرة ، ولم يستطع التوفيق بين سياسة ملكه وبين العقيدة الوهابية الصارمة كما يفهمها ويدعو إليها الإخوان 21 .

لم يكن بإمكان عبد العزيز بن سعود القضاء على فيصل الدويش دون مساعدة بريطانيا والكويت والعراق وقبائل سعودية مثل قحطان وعتيبة، الذين انقلبوا عليه بفعل قلة خبرته السياسية واعتماده القوة العسكرية خياراً وحيداً في الصراع، وهو ما كان يميّز ابن سعود الذي وظّف كل خصوم الدويش بمن فيهم الإنجليز لتصفية التمرد بقيادة الدويش 22 .

معركة السبله

بدأت الخلافات بين الملك عبد العزيز والإخوان منذ توقّف مشروع الغزو وإقامة الدولة وفق المعادلات الدولية. وبدأ مسار القطيعة بين الإخوان وابن سعود، حيث أثار قادة الإخوان ملاحظات نقدية منها: إرسال ابن سعود إبنه سعود و فيصل الى كل من مصر وبريطانيا على التوالي، باعتبارهما بلاد كفر، فيما كان عبد العزيز يدشن لعلاقات خارجية دولية، واستخدامه للتلغراف واللاسلكي، بوصفها بدعاً، والسماح للقبائل العربية في العراق بالرعي في منطقتي نجد والحجاز، وعدم إرغام سكان الإحساء على اعتناق الوهابية، وعدم تولية كل من فيصل الدويش إمارة المدينة المنورة، وسلطان بن بجاد مكة المكرمة .

ورغم محاولات عبد العزيز لجهة إمتصاص نقمة الإخوان بوساطة العلماء الذين كتبوا إليهم موضحين ومحدّرين من مغبة الخروج على ولاية أمر ابن سعود، ومن ثم إنعقاد مؤتمر الرياض في 5 نوفمبر 1928 من أجل التوصل إلى توافق مع قادة الإخوان، ولكن الدويش لم يقنع بجديّة بنود البيان الصادر عن المؤتمر، فقرر العودة الى التمرد، فأمر عبد العزيز بتعبئة عسكرية مستعينة بالدعم الإنجليزي .

وقبل يوم من بدء المعركة، حاول عبد العزيز إعتقاد الخيار الدبلوماسي والتفاوضي من أجل احتواء الإخوان بقيادة الدويش، وربما كان ابن سعود ينتظر وصول الإمدادات العسكرية الانجليزية ما دفعه لتمرير وقت كافٍ قبل بدء المعركة. حضر الدويش الى معسكر الملك عبد العزيز، كتبت جريدة (أم القرى): وآخر الأمر قدم إلى جلالته فيصل الدويش، ليفاوض جلالته بالعمفو والصفح عن المجرمين. فأعطاه جلالته أماناً على رقابهم وأموالهم، وأن يحكم الشريعة في أعمالهم، فسار الدويش على أن يرسل الجواب من ليلته فلم يرسل .

فشلت المحادثات بين الطرفين، وفي صبيحة الخامس من مارس 1929 إلتقى الجيشان في السبله، وكان جيش عبد العزيز متفوقاً من ناحية التجهيز العسكري، فكان يمتلك رشاشات جديدة من البريطانيين بعكس جند الدويش وابن بجاد، وكان ذلك مؤشراً على نتائج المعركة التي انتهت بهزيمة جيش الإخوان، وأصيب الدويش في المعركة ونقل عن أرض المعركة إلى الأوطاية، فيما كان عناصر جيش الدويش يتساقطون بين قتيل وجريح وأسير .

أما هجرة الغطف التي هرب إليها سلطان بن بجاد، فأرسل ابن سعود كتاباً إليه يطلب فيه تسليم نفسه وجميع من معه، وحين رفض أمر عبد العزيز بتدمير الغطف بالكامل، فاستسلم بن بجاد في شقراء وأمر بسجنه بالرياض، ثم نقل الى سجن بالإحساء وبقي فيه حتى موته سنة 1934م . 23 .

1 عبد العزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ص 173

2المصدر السابق ص 209

3المصدر السابق ص 175

4. مديحة درويش، تاريخ الدولة السعودية، ص 81
5. إليكسي فاسيلييف، تاريخ العربية السعودية، ص 275
6. مديحة درويش، تاريخ الدولة السعودية، ص 82
7. ديكسون، الكويت وجاراتها، ص 253
8. جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية 1840 - 1914، ص 90
9. ديكسون، الكويت وجاراتها، ص 254
10. أحمد عسّه، معجزة فوق الرمال، ص 64
11. جلال كشك، السعوديون والحل الإسلامي، ص 556
12. عبد الغفور العطار، صقر الجزيرة، ص 13
13. محمد المانع، الجزيرة تتوحد، ص 559
14. أمين الريحاني، ملوك العرب، ص 569 - 570
15. المصدر السابق ص 564
16. حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، ص 312
17. محمد المانع، توحيد المملكة العربية السعودية، ص 112
18. أمين الريحاني، ملوك العرب، ص 571
19. الريحاني، ملوك العرب، ص 511
20. أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ص 64
21. أنظر: ديكسون، عرب الصحراء، ترجمة سعود الجمران، الطبعة الأولى ، عام 1997م، ص 476 - 477
22. أنظر: محمد جلال كشك، السعوديون والحل الإسلامي، تكساس، 1982
23. أنظر: خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز، بيروت 1970، أمين الريحاني، تاريخ نجد وملحقاتها، بيروت 1981، عبد الله العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، ج 2، ط 3 1997